من نفحات الدومى

رضي الله عنه

مجموعة مقالات بقلم العارف بالله تعالى

الشيخ
عبد الجواد محمد الدومى
(طيب الله ثراه ونفعنا به)

جمع وإعداد وترتيب
الأستاذ الحاج
عبد المنعم محمد عبد السلام

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

من نفحات الدومي

رضي الله عنه

مجموعة مقالات بقلم العارف بالله تعالى

الشيخ / عبد الجواد محمد الدومي

(طيب الله ثراه ونفعنا به)

جمع واعداد وترتيب

الأستاذ الحاج / عبد المنعم محمد عبد السلام

(الطبعة الثانية)

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا تقبل منا

إنك أنت السميع العليم

العارف بالله تعالى الشيخ عبد الجواد محمد الدومى رضي الله عنه

مقدمة الطبعة الثانية
نفحات لكتاب النفحات

الحمد لله رب العالمين الذي أنعم علينا بمعرفة الصالحين، ويسر لنا سبل التعرف على قبس من أنوار علمهم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد نور الأنوار، ومعدن الأسرار، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين... وبعد:

إذا كانت الطبعة الأولى من هذا الكتاب قد قدَّم لها بعض العلماء الأفاضل والمريدين المحبين الذين عايشوا العارف الدومي رضي الله عنه ، فشربوا من نبع علمه الغزير، وعبّروا عن ذلك بكلماتهم التي تفيض بالوفاء والإخلاص والتقدير لشيخهم وأستاذهم العارف الدومي رضي الله عنه ، الأمر الذي يقتضي عدم وجود مبرر لمقدمات أخرى للطبعة الثانية (حيث ليس من رأى كمن سمع)- لذا وجدت أن واجب الوفاء يقتضي أن أذكر بعض النفحات التي عايشتها من خلال مراحل إخراج الطبعة الأولى لهذا الكتاب القيم: في أحد أيام شهر فبراير من عام ١٩٧٩م، طلب مني الوالد -رحمه الله- أن أذهب إلى مطبعة دار غريب لتسليم أكلاشيه (خاص بالزخرفة الإسلامية على الزنكوغراف) الغلاف- فسألته ماذا عن الدروس التي كان يلقيها العارف الدومي في مسجد سيدي سليم السباعي، وقد كان الوالد يدونها في ما يقرب من أربعين نوتة، وفي أدب بالغ وحنان مبهر فاجأني بسؤال أسكتني!! هل من الأدب أن أبدأ بما كتبته عن سيدي الشيخ؟ أم أبدأ بما كتبه بنفسه؟ ولم أعقب.. ولكن

تعلمت كيف يكون التقدير للعلم والعلماء، وكيف يكون وفاء المريد لشيخه حتى بعد انتقاله إلى رحاب الله سبحانه وتعالى بعد ما يقرب من ٣٧سنة - وذهبت إلى المطبعة في غرفة صغيرة إلى يمين المدخل قابلني شاب وسيم بشوش الوجه - عرفت فيما بعد أنه الأستاذ هاني أحمد غريب- تسلم الأكلاشيه، ثم فاجأني بسؤاله: هل يمكن للوالد أن يجمع التفسير الكامل للقرآن الكريم للشيخ الدومي؟ وتعجبت وقلت له: لا أعرف، فاستطرد قائلاً: إنني على استعداد لأن أطبعه كاملاً على نفقتي الخاصة.. ثم أردف: تعال معي لتشاهد ما أحدثه هذا الكتاب من تأثير في عمال المطبعة.. وأخذني من يدي إلى الفناء الداخلي لأرى حصيراً ملفوفًا في أحد الأركان بجوار محراب للقبلة مصنوع من الورق المقوى.. ثم قال: لقد جعل هذا الكتاب جميع العمال يقبلون على الصلاة من خلال قراءتهم له أثناء جمعه، واستحضرت على الفور قول الشاعر:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء

وقدر كل امرئ ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أحياء

ففز بعلم تعش حيًا به أبدًا ... الناس موتى وأهل العلم أحياء

وتمر السنوات، وفي أحد أيام شهر إبريل من عام ٢٠٠٧- أي بعد ما يقرب من ٣٧ سنة أخرى قررنا وأخي الأكبر المهندس/ صلاح عبدالمنعم (رحمه الله) أن نعيد طباعة كتابين للوالد (رحمه الله) في كتاب واحد أسميته: «القرآن الكريم يقول هذه مكانة الرسول» وذهبت إلى دار غريب للطباعة والنشر تسبقني ذكريات طباعة كتاب النفحات.. ولا تستطيع الكلمات أن تصف مشاعر الفرحة التي غمرتني عند لقائي بالأخ العزيز الأستاذ هاني (تغمده الله بواسع رحمته وأدخله فسيح

جناته)، واستعدنا الذكريات الروحانية الممتعة، ووجدت لديه نفس الحماس للعمل على إصدار طبعة ثانية لكتاب «من نفحات الدومي» رضي الله عنه ، ووافقت على الفور على إسناد هذه المهمة الجليلة لدار غريب سائلاً المولى عز وجل أن يوفقهم لنشر العلم النافع، وأن يجعل كل حرف في ميزان حسنات كل من كتب أو أعان أو ساهم في نشر العلم النافع لأمة المسلمين وخير البشرية، وهو السميع المجيب. وصلِّ اللهم على سيدنا محمد صاحب الخُلق العظيم الذي لا يعرف عظمته إلا الله سبحانه وتعالى، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيراً.

راجي عفو ربه

عبد الجواد منير عبد المنعم

***

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير
بقلم فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عامر عبد الرحيم

الحمد لله رب العالمين، صاحب الفضل العظيم والجود العميم، الذي مَنَّ على المؤمنين بأن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة إنه عزيز حكيم.

والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين، الذي أرسله الله رحمة للعالمين، وأنزل فيه قوله الكريم: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ (يوسف: ١٠٨) صلى الله عليه صلاة تدوم بدوامه، وتبقى ببقائه، لا منتهى لها دون علمه، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد

فقد مَنّ الله سبحانه وتعالى علينا بأن تلقينا الطريق على يدي صاحب الفضل والفضيلة مولانا وسيدنا العارف بالله تعالى الشيخ عبدالجواد الدومي رضي الله عنه شيخ الطريقة الخلوتية. واستمعنا إليه في مجالس علمه المباركة التي كان يعقدها ليلاً ونهاراً زهاء ربع قرن من الزمان، من نفائس العلوم الربانية، والفيوضات الرحمانية ما تنبهر له قلوب العلماء

والصالحين. فقد كان رضي الله عنه المثل الأعلى للمحبين الصادقين لله سبحانه وتعالى ولرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم. وكان يبث هذا الحب في قلوب أحبابه ومريديه حتى كانت دعوته مؤسسة على الصدق في محبة الله ورسوله، والصدق في اتباع شرع الله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه.

وقد تجلى ذلك في كافة مجالسه العلمية، وبرز في تفسيره رضي الله عنه لبعض من آيات القرآن الكريم التي اتجه في تفسيرها بعض المفسرين اتجاهًا لا يتفق والمقام السامي لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، فقد فسرها رضي الله عنه التفسير الصحيح الذي يليق بمقام النبوة الكريم.

لذلك كان من توفيق الله تعالى أن يتيسر جمع مقالات مولانا الأستاذ الدومي رضي الله عنه والسابق نشرها في مجلة الإسلام والتي تشمل تفسير بعض آيات الذكر الحكيم وبعض الأحاديث النبوية وبعض الفتاوى والأحكام، وإن كانت في الحقيقة لا تعد إلا غرفة من بحره رضي الله عنه وأرضاه. ونرجو من الله تعالى أن يكون في نشرها مزيد من الانتفاع بهذا العلم الرباني لنا ولجميع المؤمنين، وأن يشرح الله بها الصدور، وينير بها القلوب، كما نسأله سبحانه وتعالى أن يجزي مولانا وشيخنا الأستاذ الدومي رضي الله عنه خير الجزاء، وأن يفيض عليه من آلاء الرضوان والقرب ما هو أهله.

القاهرة في أول ربيع ثان عام ١٣٩٩هـ

عامر عبد الرحيم سعيد

من علماء الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة تقدير
بقلم فضيلة الأستاذ الفاضل
الشيخ محمد فهمي محمود فهمي

الحمد لله رب العالمين الذي اختص بعض عباده الصالحين بأن جعلهم موضع نظره من الأرض تكريمًا لهم وتشريفًا، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نور الأنوار، ومعدن الأسرار، وسيد الأطهار الأبرار، ورضوان الله تعالى على آله وصحابته ومن تبعهم، وعلى العلماء منهم الذين هم ورثة الأنبياء.

وبعد

فقد كان شيخنا وملاذنا ومولانا العارف بالله تعالى الأستاذ عبدالجواد الدومي رضي الله عنه شيخ الطريقة الخلوتية، مجاهدًا في الله حق جهاده، جهاد صدق وإخلاص، ومحبة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم . وقد كانت أيامه ولياليه كلها مجالس علم وذكر، وتعليم وجهاد ورحمة، وكانت له رضي الله عنه فتوحات خاصة من الله ، وفيوضات وتجليات. ومازالت إمداداته وبركاته تملأ قلوب الآلاف من أتباعه ومحبيه بالنور والبركة والهداية.

لقد كان رضي الله عنه قطبًا من أقطاب الأولياء، مستجاب الدعوات، منبعًا للبركات والخيرات، أستاذًا في علوم الشريعة والحقيقة، مشيدًا لأركان

الطريقة، عالمًا عاملاً ممن قال فيهم رسول الله ﷺ: «علماء فقهاء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء». ولقد شرفنا الله سبحانه وتعالى بالتلقي عنه مع كثير من العلماء والآلاف من المريدين والمحبين. وكانت نفحاته في مجالس الذكر أو دروس العلم تفيض علينا بما يملأ القلوب حبًّا لله ولرسوله ﷺ، وكأننا في هذه المجالس كنا نحلق في السماء.

ونحمد الله تعالى على توفيقه وتيسيره في تجميع بعض من آثار علمه في هذا الكتاب، لنستعيد في قراءته بعض نفحاته، ونستنشق عبير كراماته، ونستمد من الله تعالى العون والتوفيق للسير على طريقته والعمل على نهجه وسيرته.

سبحانك اللهم وبحمدك نشكرك على نعمك، ونسألك من فيض فضلك أن تجزي شيخنا الدومي رضي الله عنه ومن خلفه من الأقطاب والعلماء خير ما جزيت به المحسنين، وأن تزيدهم في مقامات الرضا والرضوان والإحسان، إنك رب كريم.

القاهرة في أول ربيع ثان عام ١٣٩٩هـ

محمد فهمي محمود فهمي

من علماء الأزهر الشريف

***

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة وفاء

بقلم الأستاذ الحاج عبد المنعم عبد السلام

الحمد لله رب العالمين، الذي أفاض على عباده الصالحين من فيوضاته الربانية وتجلياته الرحمانية، وأنعم عليهم بالقرب منه حتى سقاهم من علومه اللدنية. والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد معدن الأسرار الربانية، وخزائن العلوم الاصطفائية، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

وبعد

لقد كان سيدنا ومولانا العارف بالله والداعي إليه على بصيرة، أستاذ الطريقة الخلوتية، الشيخ عبد الجواد الدومي رضي الله عنه عالمًا ربانيًا، ناشراً للشريعة المحمدية، متمسكًا بأهدابها، عاملاً بأسبابها، أستاذًا كاملاً للطريقة والحقيقة، حاملاً لمشاعل النور والهداية، حتى حقق الله على يديه زهاء ربع قرن من الزمان ما يعتبر فتحًا من الفتوحات الإلهية التي غمرت الآلاف من التابعين والمحبين. فلقد كان لمولانا رضي الله عنه دروس علم أفاض فيها من النفحات الإلهية والفيوضات الربانية ما يستعصي على الألباب وصفه، ولا تستطيع الألسنة التعبير عن أثرها، وأبسط ما يُقال فيها: إن هذه الدروس كانت تزج بقلوب المستمعين لها في الأنوار الإلهية، والإمدادات المحمدية. كما كانت له رضي الله عنه مقالات نشرتها مجلة الإسلام الغراء في التفسير والفتاوى والأحكام ما يعتبر نبراسًا لهداية المهتدين ونوراً لقلوب الصالحين.

وإذا كانت الأقلام قد قصرت عن تدوين بعض ما أفاض الله به عليه رضي الله عنه في دروس علمه، فإن بعض المحبين قد جمع مقالات الأستاذ رضي الله عنه التي نشرت في مجلة الإسلام في هذا الكتاب لكي ينتفع بها المسلمون، رغم أنها في الحقيقة لا تمثل إلا قطرة من فيوضات بحر علمه الغزير. وندعو المولى أن يجزل له المثوبة، ويمتعه بالرضوان، ويفيض عليه من الجزاء ما يرضيه.

هذا وينقسم الكتاب إلى قسمين:

الأول: ويشمل المقالات الخاصة بتفسير بعض آيات الذكر الحكيم وكذلك تفسير بعض الأحاديث النبوية الشريفة.

الثاني: ويشمل المقالات الخاصة بالفتاوى والأحكام المتمثلة في أسئلة بعض السائلين وأجوبته رضي الله عنه على هذه الأسئلة.

وقد جمعت هذه المقالات في هذا الكتاب وفق نصوصها المنشورة في مجلة الإسلام بلا تغيير استدراراً للبركة والتماسًا للحظات من التجليات الرحمانية التي كانت تفيض على قلوب من يجالسون الأستاذ رضي الله عنه وأرضاه.

هذا وقد خلف فضيلة الأستاذ أساتذة وأبطالاً من أقطاب العلم والولاية ساروا على نهجه في نشر أسرار الشريعة وأنوار الطريقة على أساس سليم من الكتاب الكريم والسنة النبوية والتصوف الحميد ما يجعلهم يستحقون الحمد والثناء من الله سبحانه وتعالى ورسوله الأكرم صلى الله عليه وسلم وسائر المؤمنين. جزاهم الله أفضل ما جزى المحسنين.

القاهرة في أول ربيع الثاني عام ١٣٩٩هـ

المحب الفقير إلى الله

عبد المنعم عبد السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف

الحمد لله الذي شرف الإنسان بتنزيل الفرقان، وأفاض على المتقين أسرار البيان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أظهر دقائق القرآن، وشيد أركان الشريعة للعالمين، وأوضح أفعال الطريقة للسائرين، ورمز في علوم الحقيقة للعارفين، وعلى آله وصحبه الذين ارتشفوا من فيض أنواره، ونهلوا من كنوز أسراره، والتابعين لهم من العلماء العاملين الذين عملوا بشريعته، وتمسكوا بسنته فتجلى عليهم المولى سبحانه وتعالى بفهم أسرار كتابه، ومعرفة دقائق رقائق معانيه.

وبعد

إنه من أجل المنن وأعظم النعم توفيق المولى سبحانه وتعالى للأخ الهمام، الحاج عبد المنعم عبد السلام، أن يجمع مقالات مولانا وشيخنا وأستاذنا صاحب الفضيلة العارف بالله تعالى الشيخ عبد الجواد الدومي - عليه سحائب الرحمة والرضوان- في كتاب أسماه «من نفحات الدومي» حفاظًا على هذا التراث القيم «الذي يعتبر بحق ثروة عظيمة يستفيد منها العام والخاص»[1]، ويجدر بنا - لإيضاح الجانب الروحي المضيء من رحلة حياته رضي الله عنه أن نسرد قبسًا من سيرته المشرقة الوضاءة منذ طفولته إلى أن أصبح شابًا تقيًا نقيًا، حتى صار عالمًا عاملاً ورعًا، وصوفيًا عارفًا مربيًا.

---

(١) من رسالة المنحة الربانية لفضيلة مولانا العارف بالله تعالى المرحوم الشيخ محمد أحمد الطاهر ص ٧٥ الطبعة الأولى.

ولد رضي الله عنه في شهر شعبان عام ١٣٠٠هـ في بلدة أم دومة القريبة من طهطا التابعة لمحافظة سوهاج. وكان أبوه رجلاً تقيًا وتصادف في يوم ولادته أن كان شيخه العارف بالله تعالى مولانا الشيخ عبد الجواد المنسفيسي - شيخ الطريقة الخلوتية وقتئذ- يزور بلدتهم، فتلقى المولود مستبشراً وسماه باسمه «عبدالجواد» وتنبأ له أنه سيكون عالمًا عاملاً، ونفحه بدعواته وشمله ببركاته.

ولما بلغ الخامسة من عمره بدأ في حفظ القرآن الكريم وأجاد حفظه وتسميعه ولم يبلغ العاشرة، والتزم القيام بالصلاة من ذلك الحين، فنشأ طاهراً تقيًا. وفي العاشرة تلقى العهد على يد صاحب الفضل العارف بالله تعالى مولانا الشيخ عبد الجواد المنسفيسي رضي الله عنه وعندئذ كلف بالتصوف الصادق، ومالت روحه إلى النزعة الصوفية المشرقة، فراض نفسه على متاعب السلوك ومجاهدة النفس، فانعكف على العبادة، وأقبل على الله بكليته، وأقام على ذكره وطاعته، واستجاب لأوامره ونواهيه، وأعرض عن زينة الدنيا وزخرفها، وزهد فيما يقبل عليه الناس من لذات، واهتم بالسلوك والتعبد وتربية النفس والتقرب إلى الله . وهكذا نشأ وتربى في أحضان الطريق فأحبه شيخه وأعطاه الكثير من عنايته ورعايته.

وفي الثالثة عشرة من عمره أذن له شيخه أن يتوجه إلى الأزهر الشريف ليرشف من مناهل العلم. ولقد أصاب فيضًا من العلم على كثرة من أكابر شيوخ الأزهر الشريف من رجال العلم وأرباب التصوف، فدرس على أيديهم مختلف المصنفات في الدين، وشتى علومه النقلية من فقه وتفسير وحديث وسير، وعلومه اللسانية من نحو وبيان ولغة، وكان واسع الاطلاع على كثير من التآليف، والشروح على المتون أو التعليقات على الشروح، كما كان قوي الذاكرة، سريع الفهم، قادراً على استيعاب ما يسمع وما يقرأ. واستمر ملازمًا أشياخه بالأزهر بضع سنين ينهل من الينابيع الصافية لعلومهم الشرعية. وفي

نفس الوقت ازداد شغفه بدراسة التصوف الذي يتفق والتعاليم الدينية ويساير السنة النبوية. فدرس أحوال القوم وتذوق ما تحلّوا به من إيمان قوي عميق، وخلق إسلامي قويم، وإنابة صادقة إلى المولى عز وجل، وثقة به، وتفان في سبيله، وشوق إليه، وحنين إلى الجنة، وخشوع في الصلاة، وإخلاص في العبادة، ولذة في الدعاء، وزهد في زخرف الدنيا، وعزوف عن الشهوات إلى غير ذلك من الصفات الصوفية التي تصقل الروح وتغذي القلب وتذكي نور اليقين، وتشعل وهج الحب السابق فيمن يحبهم، وتنمي الصلة القوية بالله فيحبونه، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (المائدة: ٥٤) فتعود الروح إلى سيرتها الأولى وصفائها الأصيل. وهكذا استقى رضي الله عنه أصول التصوف عن خيرة أهل زمنه من علماء عاملين، وأئمة محققين، ودعاة مؤمنين مخلصين. واستمر ينهل من كئوسهم، ويسير على منهجهم حتى غادر الأزهر بمشورة شيخه العارف بالله تعالى الشيخ عبد الجواد المنسفيسي الذي أجازه وأذن له بالإرشاد وتعليم الناس ونشر الطريق. وفي نفس هذا العام أدى رضي الله عنه فريضة الحج وزار المدينة المنورة، وامتلأ قلبه إيمانًا ويقينًا ورجع من المدينة المنورة إلى القاهرة مشحونًا بالنفحات الربانية والفيوضات الإلهية والأنوار النبوية، يحمل مشعل الدعوة ولواء الطريق.

وأقام رضي الله عنه في القاهرة حيث تزوج فيها، وعين إمامًا وخطيبًا في عدد من المساجد، يؤم المصلين ويخطب فيهم، ويلقي عليهم دروسًا في الفقه والتفسير والحديث. وقد اشتهر بأنه كان طلق اللسان، قوي البيان، واضح العبارة، متين الحجة، سهل الإقناع. وفي نفس الوقت كان يربي المريدين ويشرح لهم ما يقتضيه الطريق من شعائر الدين، وما يستلزمه من التفقه بأحكامه، وما يتطلبه من التجرد لذكر الله ، ومواصلة عبادته، وإعراض عن الدنيا، وزهد في وجوه الملذات حتى يتحقق لهم صفاء الروح وطهارة القلب.

ولقد كان رضي الله عنه لمريديه مثلاً أعلى، إذ كانت حياته زاخرة بالعبادة، حافلة بالمجاهدة. كان متصوفًا ورعًا، قويًا في إيمانه، قمة في يقينه، قدوة في سلوكه، حكيمًا في تصرفاته كما كانت معاملاته في الأمور الدنيوية نماذج من الذوق الرفيع والحس الدقيق.

وفي نهاية العقد الثالث من عمره - عليه سحائب الرحمة والرضوان- نقل إمامًا وخطيبًا لمسجد الزيني بالسبتية حيث استقر به المقام زهاء ربع قرن من الزمان يقيم شعائر الدين، ويلقي دروس التفسير والحديث والحكم، وكانت هذه الدروس تقوم أساسًا على علم التوحيد - وهو أشرف العلوم، - والتصوف - وهو ثمرة جميع علوم الشريعة-، وتشمل الدروس أسس الشريعة السمحة ومبادئها، والحث على الإيمان، والعمل الصالح والتقوى والخشية من الله ، والتحذير من غرور الدنيا وطول الآمال. ومن خلال هذه الدروس كان ينشر الطريق ويوضح التصوف وأصوله. وبذلك كان المسجد مركزاً للعبادة وركيزة لتطهير القلوب، وتنقية الضمائر، وتصفية النفوس وتهيئتها للسير إلى الله ، كما كان في الوقت نفسه معهداً للعلم والتثقيف.

ولما كان شأن أهل القلوب أن تنجذب إليهم النفوس، فقد انتشرت شهرته رضي الله عنه بين الناس، وطاب ذكره، وذاع صيته، فاتسعت حلقة دروسه حتى أصبحت من أوسع الحلقات، ووفد عليه عدد كبير من بعض كبار العلماء والمثقفين والطلاب والمريدين يحرك قلوبهم بكلماته التي تخرج من القلب فتدخل في القلب وتهز أوتاره، وتمس شغافه، وتثير الوجدان وتكشف الغطاء عن العيون.

ومع أن المقالات المجموعة في هذا الكتاب تمثل جانبًا رائعًا من قدرته العلمية، إلا أن الدروس التي كان يلقيها في المسجد كانت أمتع وأروع؛ إذ لم

تكن مقيدة بوحدة الموضوع أو حيز النشر. فكان الاستطراد في الدرس مطلقًا يمتد ساعات، بل وساعات بما يتخللها من لمسات صوفية مشرقة وضاءة. فقد كان رضي الله عنه ذا روح ملهمة، وبصيرة نيرة، ونظرة صائبة، عالمًا ببواطن النفوس، قادرًا على مداواة أمراضها «ينهال على النفوس فيكشف دسائسها الخفية ومكايدها المستورة ويحمل على الأهواء والشهوات فيصيب مقاتلها ويخفض من جبروتها وطغيانها، ويناشد العزائم والهمم فيوقظ راقدها ويبعث هامدها، يصل إلى الشعور فيلمسه، وإلى الإحساس فيهيجه، ما بين مناجاة للضمائر والقلوب بعبارات الترغيب والترهيب، ومخاطبة العقول والأفكار بسواطع الأدلة ونواصع البراهين»(١).

وكان رضي الله عنه يستمد هذا الفيض مما يفتح به الله عليه، فيرى بنور بصيرته كامن الخواطر فيرد على ما يتردد في خواطر المستمعين من تساؤلات، ويجيب على ما يجول في خاطرهم من أسئلة، يشجع عابدًا على الاستمرار في عبادته، ويحث زاهدًا على المزيد من تمسكه، ويغبط شابًا لطهارته وتعلقه بالمسجد، ويحبذ فعل الخير والاجتهاد فيه، ويفتح باب الأمل ليائس قانط، ويكشف اللثام عما كان مستورًا، ويوجه من كان مقصرًا في واجباته حتى ليحس كل واحد من المستمعين أنه المقصود بهذا التوجيه.

وهكذا صار رضي الله عنه العارف الذي التقت عنده صدارة العلم وزعامة الطريق؛ إذ أصبح عملاق عصره، وقطب زمنه، علمًا وتصوفًا، وتدرج في مراتب السلوك، وترقى في مقامات الرجال، حتى بلغ درجات الكُمَّل من أهل الكشف والتحقيق.

---

(١) رسالة المنحة الربانية لفضيلة مولانا العارف بالله تعالى المرحوم الشيخ محمد أحمد الطاهر ص ٧٥ الطبعة الأولى.

وعلى الجملة فقد كان المسجد معهداً تخرج فيه عدد عظيم من العلماء العاملين، والعارفين الذين ساروا على دربه وحملوا مشعل الدعوة ولواء الطريق من بعده، منهم الداعي إلى الله على بصيرة العارف بالله تعالى محمد أحمد الرملي والمرحوم فضيلة الشيخ محمد سليمان، والعارف بالله تعالى فضيلة مولانا وشيخنا محمد أحمد الطاهر الحامدي والمرحوم فضيلة الشيخ محمد مرسي الطنطاوي، والمرحوم فضيلة الشيخ علي عثمان عزوز، والعارف بالله تعالى فضيلة مولانا الشيخ عامر عبدالرحيم سعيد - شيخ الطريقة الخلوتية حاليًا- وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ محمد فهمي محمود فهمي وفضيلة الأستاذ الشيخ حسين خليل عبد الكريم، وغيرهم كثيرون من الأموات والأحياء الذين عاشوا في رحابه أكبر فترات عمره عطاء وسخاء.

ومازال رضي الله عنه مكثراً من ذكر الله ، مجاهداً في سبيله، يتحاشى النوم والراحة حتى ضعفت بشريته وقويت روحانيته، وكبرت به السن وأرغمه المرض في أخريات حياته إلى ملازمة الفراش حتى فاضت روحه إلى بارئها في ختام عام ١٣٦٢هـ. ودفن بضريحه في جهة الإمام الشافعي في القاهرة.

سيدي وأستاذي:

سلامًا لروحك الطاهرة مع الخالدين، وستظل ذكراك في قلوبنا ترفرف علينا من عليين، وسنظل على عهدك نترسم خطاك ونهتدي بتعاليمك- طيب الله ثراك وأدام علينا رضاك.

عبد المحسن السيد محمد
من تلامذة الأستاذ رضي الله عنه

القاهرة في ٢ ربيع ثان عام ١٣٩٩هـ
الموافق أول مارس عام ١٩٧٩م

القسم الأول
التفسير

ويشمل تفسير بعض آيات القرآن الكريم
وبعض الأحاديث النبوية الشريفة

مجد الإسلام لم يقم على السيف
وإنما قام على الحجة والبرهان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لا إكْراهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ صدق الله العظيم

من سورة [البقرة: ٢٥٦، ٢٥٧]

تمهيد

بعث الله سيدنا ومولانا محمداً ﷺ بالآيات الساطعة والبراهين القاطعة، يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادل بالتي هي أحسن، لا يجبر أحداً على قبول دعوته، ولا يكره الناس على الدخول في ملته، مكتفيًا بالحجة والإقناع، معلنًا أنه لا سيطرة له على الضمائر، ولا سلطان له على القلوب. وظيفته الدعوة والدلالة، يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر ويحذر عاقبة الظلم والطغيان. وليس من وظيفته ولا من اختصاصه إحلال الهداية في قلوب الضالين، وإيصال اليقين إلى

نفوس الحائرين المضطربين. إنما ذلك لله وحده ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾(القصص: ٥٦). وقد جاء صلوات الله وسلامه عليه بالشريعة الواضحة والملة القويمة والحنيفية السمحة. جاء بدين الفطرة الذي تهفو إليه الألباب وتطمئن له القلوب؛ لأن فيه رشدها من الغي وهدايتها من الضلال، وشفاءها من العمى. فهي ميالة إليه بطبيعتها محبة له بفطرتها متى خلت من الموانع والعوائق، لا تروم به بديلاً ولا تختار سواه دينًا. وإن دينًا هذا شأنه ليس محتاجًا إلى القوة تسنده، ولا إلى السيف يعزز مركزه ويشيعه إلى القلوب. فهو بقوانينه العادلة ونظمه المتينة وتعاليمه المحببة إلى النفوس، الكافلة لسعادة البشر في معاشهم ومعادهم، غني عن مظاهرة الحديد والنار. لم يقم صرح مجده، ولم يمتد وارف ظله، ولم يحتل مكانه الأول في نفوس الخاصة والعامة تحت تأثير شيء ما غير الحجة والبرهان. وغير ما جاء به من السماحة واليسر. ومن المبادئ العالية التي عليها وحدها - وإن كابر المبطلون- يقوم نظام الحضارة والعمران. وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة». يعني أن معجزات الأنبياء السابقين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كان معظمها من قبيل الخوارق الحسية التي تضطر المشاهد لها إلى الإيمان والتسليم، فإذا مضى زمنها انقضت وانقطع أو كاد المصدقون لها، وأما معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم أي معظم معجزاته وأهمها فهي القرآن الكريم الزاخر بالحجج القطعية والبراهين العقلية، لا تنفد عجائبه ولا يخلق بكثرة الترداد، وكلما

تعاقب السنون وتوالت الأجيال واتسع نطاق العلم وتقدمت الصنائع والفنون عظمت قيمة هذا الكتاب، وظهر للناس صدق أخباره وحقيقة إعجازه، فبذلك يكثر أتباع النبي ﷺ ويدخل الناس في دينه أفواجًا. فظهر أن قتاله ﷺ وجهاده الكفار والمنافقين لم يكن للإكراه على الدين وحمل الناس على الدخول فيه بالقوة والقهر، وإنما كان لدرء الفتنة وصد هجمات المعتدين. كان لحماية الملة وصيانة الدولة من عبث العابثين وكيد الأشرار المجرمين، وهذا أمر لابد منه في كل زمان ومكان، فهو ضروري لكل أمة لها كرامة تحتفظ بها ودين تغار عليه، ونظام تحرص على تنفيذه. لم يخل من ذلك دين سماوي ولا قانون وضعي، ومن أدار نظره في مختلف القوانين السارية الآن وجدها تنص على استعمال منتهى الشدة والقسوة مع كل شخص يحاول العبث بنظام الدولة وشكل الحكومة أو يعتدي على حريات الناس وعقائدها وغير ذلك من أنواع العبث والفساد في الأرض. وفي ذلك يقول الحق تعالى في محكم كتابه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾(البقرة: ٢٥١)، ومن هنا يعلم سقوط ما يدعيه بعض الكُتَّاب من الغربيين وأشباههم أن الدين الإسلامي دين غلبة وقهر لم يقم إلا على القوة والعنف، ولم يترعرع إلا تحت بارقة السيوف، ولو كان ما يتشدق به هؤلاء له نصيب من الصحة لكان القسيسون والرهبان- نظرًا لما لهم من المكانة في دينهم والتوغل في التمسك بعقيدتهم- أولى بالإكراه والقتل ممن عداهم، مع أن النبي ﷺ نهانا عن قتلهم كما نهانا عن قتل النساء والأطفال، فمن وصاياه عليه الصلاة والسلام لبعض أمراء جيوشه «اغزو باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون رجالاً في الصوامع

منعزلين فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صبيًا، ولا تقطعوا شجرًا ولا تهدموا بناء»، وفي صحيح مسلم: «كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله عز وجل ومن معه من المسلمين» ثم قال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا»... الحديث.

وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنما بعثني الله مبلغًا ولم يبعثني الله متعنتًا» أي أن الله تعالى إنما بعثني للناس مبلغًا وحيه، معرفًا شرعه، مبينًا لهم ما فيه صلاحهم وقوام سعادتهم، ولم يبعثني جبارًا متشددًا أكمم أفواه الناس وأضغط على حرياتهم فأشق عليهم في معاملاتهم، أو أكلفهم من الأعمال ما لا يطيقون وألزمهم من الدين ما هم له كارهون. على أننا نعلم بالضرورة أن هذا الدين الإسلامي ليس من وضع محمد ﷺ ولا من صنع يده، وإنما هو وضع الله تعالى وحده، وضعه بحكمته وأنزله بعلمه وجعله ينبوع الخيرات وأس السعادات، فما المانع والحالة هذه من أن يفرضه سبحانه وتعالى على عباده فرضًا ويكرههم عليه إكراهًا؟ أليس للطبيب إذا امتنع المريض عن تعاطي الدواء الذي به زوال علته وشفاء شقائه أن يكرهه على تناوله ويجبره على تعاطيه؟ إذن فلا داعي لكثرة القيل والقال في هذا الباب، ولنكتف بهذا التمهيد الوجيز ونشرع في شرح الآيتين الكريمتين. قال الله عز وجل: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أي لا يصح ولا يتصور ولا ينفع الإكراه في دين الله تعالى؛ لأن الدين أساسه الاعتقاد القلبي والإذعان الباطني، وهذا أمر لا يجبر عليه المرء إجبارًا، وإنما يقبله طوعًا واختيارًا.

فالدين بطبيعته يتنافى مع الإكراه ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩) ومثل هذا ما يقال: لا إكراه في الحب، أي أنه لا يكون ولا يتصور فيه ذلك.

ويحتمل أن يكون المعنى على إرادة النهي أي لا تكرهوا الناس ولا تجبروهم على الدخول في دين الله تعالى، ولا تتعرضوا لهم بسوء ماداموا متمسكين بأحد الكتابين التوراة والإنجيل، ولم يقاتلوكم أو يظاهروا أحداً على قتالكم، وأعطوا الجزية بشرطها المعلوم، بدون أن يحصل منهم خيانة ولا غدر. ويعضد هذا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له: الحصين، كان له ابنان نصرانيان وكان هو رجلاً مسلمًا، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: ألا أستكرههما، فقد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله تعالى فيه ذلك... وينبغي أن يعلم أن إقرارنا اليهودي أو النصراني على دينه، وإعطاءنا له الحرية في القيام بشعائره حتى أننا أوجبنا على الابن المسلم إذا كان أبوه نصرانيًا وطلب منه أن يحمله إلى الكنيسة لعجزه عن الذهاب إليها بنفسه، أن يطيع أباه في ذلك ليس معناه أننا نعتقد صحة هذا الدين، ونتيح اعتناقه لأحد، كلا، وإنما نحن نفعل معهم ذلك بعد أن ظهرت الحجة، واتضحت المحجة وتبين الرشد من الغي، احترامًا للحريات وتحقيقًا لمبدأ العدالة والإنصاف، فالمسلم يعتقد أن الدين الذي يجب اعتناقه، وبه تحصل السعادة في الدنيا والآخرة هو الإسلام فقط دون ما عداه من بقية الأديان، ولكنه مع ذلك يرى من الواجب عليه ألا يتعرض لأحد من أهل الكتابين بسوء، فلا يسفك لهم دمًا، ولا يهتك لهم عرضًا، ولا يأخذ منهم مالاً إلا بحق شرعي، ولا يجور عليهم في حكم من

الأحكام، ولا يحول بينهم وبين القيام بشعائرهم وواجبات دينهم، ولا يرى بأسًا في معاملاتهم وأكل طعامهم والتزوج بالمحصنات من نسائهم، إلى غير ذلك مما هو مسطور، ومشهور، فالدين الإسلامي يزن الأمور بقسطاسها المستقيم، فلا يهضم حقًا من حقوق الإنسان الطبيعية، ولا يعتدي على شيء من حرياته. ولقد كان له صولة وسلطان، وكان في أبنائه شدة وقوة، لكنهم لم يتخذوا هذه القوة أداة للسلب والنهب واغتصاب الحقوق الشرعية، ولم يستعملوا الشدة قط لخنق الحريات وإكراه أحد على ما لا يريد، وإنما قسوا واستعملوا الغلظة والشدة مع الأشرار الذين لا هم لهم إلا إثارة الفتن، وإحداث القلاقل والتعرض للحرمات، ولا غضاضة في أن يكون المسلمون قساة على الأشرار، أقوياء في الحق، أشداء على الكفار، وإنما الغضاضة كل الغضاضة أن يكونوا بخلاف ذلك، فيكونوا أبناء الضعة والصغار، ويكون دينهم دين المسكنة والذل، لا يستطيعون أن يتبوأوا مكانهم تحت الشمس أو يتمتعوا بقسطهم من الحرية والاستقلال، فلا تهابهم الأمم ولا يحترمهم مخلوق. وما أحسن ما قالته إحدى الجرائد الإنجليزية بصدد الحديث عن الاتفاق الإيطالي الإنجليزي الذي تم أخيراً حيث قالت ما مؤداه: لو كنا ضعفاء لما رغب موسليني في صداقتنا. وهذا حق لا مرية فيه فلا حياة بدون القوة في هذه الحياة.

﴿قَدْ تَبَيَّنَ﴾ أي اتضح وتميز بما نصبه الله تعالى من الدلائل الكونية وما أوحاه إلى رسله عليهم الصلاة والسلام من الآيات التنزيلية الدالة على عظمته تعالى ووحدانيته وانفراده بالتأثير والإيجاد. وأنه جل شأنه القائم على كل نفس بما كسبت، لا تأخذه سنة ولا نوم، وسع كرسيه

السموات والأرض. وشملت قدرته جميع الكائنات فلا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة إلا هو، ولا تتحرك ذرة في العوالم كلها إلا بإذنه ومشيئته ﴿ الرُّشْدُ ﴾ أي الإيمان والخير وكل ما يوصل إلى الله تعالى ويقرب من حضرته العلية اعتقاديًّا كان أو عمليًّا. ﴿ مِنَ الْغَيِّ ﴾ وهو الكفر والضلال، فلا عذر بعد البيان ولا حجة بعد الرسل عليهم الصلاة والسلام ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ﴾ أي يتبرأ منه ويتطهر من رجسه. والطاغوت قيل: هو الشيطان، وقيل: الصنم، وقيل: الساحر. والأحسن أن يراد به كل ما عُبِدَ من دون الله تعالى، وصد عن سبيله من شيطان وصنم وكاهن وساحر وغير ذلك. والطاغوت مأخوذ من الطغيان، ويطلق على الواحد كما في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ (النساء: ٦٠) وعلى الجمع كما في قوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ﴾ (البقرة: ٢٥٧). ﴿ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ ﴾ تعالى إيمانًا حقيقيًّا بأن يصدق بوجوده تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته الكمالية.

ومن توابع هذا الإيمان أن يؤمن بالملائكة والرسل عليهم الصلاة والسلام، ويؤمن بالكتب السماوية المقدسة وما فيها من الوعد والوعيد، وأنباء القرون الأولى وما جرى عليهم من التقلبات والأطوار المختلفة، وأخبار القيامة والبعث والعرض الأكبر على الله تعالى لمحاسبة العباد على ما صدر منهم من الأعمال في الحياة الدنيا ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة: ٧،٨). فريق في الجنة وفريق في السعير. ومن توابع هذا الإيمان أيضًا أن يعتقد أنه لا يمكن تحقيق سعادة

البشر وتنظيم جماعاتهم وإصلاح شؤونهم الدنيوية والأخروية إلا بما وضعه الله من النظم وشرعه من الأحكام.

هذا، وفي تقديم القرآن الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله تعالى إشارة إلى أن التخلية مقدمة على التحلية، فلا يصح الإيمان إلا بعد التوبة من الكفر والبراءة من الشرك، ولا يتحقق التوحيد إلا بعد حصول التجريد. ومن هنا قال العارفون أطباء القلوب: إن المريد لا يمكنه الحصول على محبة الله تعالى والوصول إلى معرفته معرفة حقيقية إلا بعد أن يخلي قلبه من الشواغل ويفرغه من الأكدار، ويحرره من ربقة الشهوات. ومن كلام العارف ابن عطاء الله في الحكم: كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته؟ أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته؟ وقال في موضع آخر: فرغ قلبك من الأغيار تملأه بالأنوار. ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أي بالغ في التمسك بالعقيدة الصحيحة الثابتة المبنية على الأدلة القطعية والبراهين اليقينية التي هي كالحبل المحكم الوثيق ﴿لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ أي لا انقطاع لها ولا انحلال لها في الدنيا والآخرة، فالإيمان بالله تعالى أصل كل خير وأساس كل عمل صالح وثمراته لا تنقطع في الدارين، به تتهذب النفس وتصفو الروح وتستقيم الجوارح، وتتفجر ينابيع الأخلاق الفاضلة والآداب الكريمة، فهو أس الكمالات ومصدر الخيرات والبركات، متى خالطت بشاشته القلوب وامتزجت أنواره باللحم والدم كف صاحبه عن القبيح، ونهاه عن الفحشاء والمنكر، كما قال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق

وهو مؤمن». فالمؤمن حقًا لا يزني ولا يسرق ولا يشرب الخمر، ولا يؤذي أحدًا من الخلق، ولا يتعدى على أحد بدون حق. أما الكفر على اختلاف أشكاله وألوانه، فهو مصدر القبائح والشرور، ومنشأ الانغماس في الرذائل كلها وسبب الجرائم والبلايا بأسرها. وفي القرآن الكريم: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (الحج: ٣١) . قال العلماء: إن الله تعالى جعل في هذه الآية الكريمة من ترك الإيمان وأشرك به مثله كمثل شخص خر من السماء فاختطفته الطير في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة.

وحاصله: أن من أشرك بالله تعالى فقد أهلك نفسه إهلاكًا ليس بعده نهاية. ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ لكل ما يصدر من الخلق من الأقوال والأفعال والأحوال كلها ظاهرة وباطنة، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ (المجادلة: ٧)، ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ (الحديد: ٤) .

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليَّ رقيب

والله وليَ التوفيق.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

صدق الله العظيم

[من سورة البقرة: ٢٦٠]

هذه القصة سيقت بيانًا لسعة قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه وتقريراً لولايته عز وجل للمؤمنين من عباده، مع ما فيها من الفوائد الجليلة والحكم الغالية التي سننبه عليها إن شاء الله فيما بعد:

و ﴿ إِذْ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ ظرف زمان متعلق بفعل محذوف صرح بمثله في نحو قوله جل شأنه: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ ﴾ (الأعراف: ٦٩) ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٦)، وقوله: ﴿ أَرِنِي ﴾ أي: أطلعني واجعلني رائيًا أي مبصراً بعيني رأسي، ومعنى ﴿ كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ أي: على أي حالة وكيفية تُحْي الموتى، فمطلوب الخليل عليه الصلاة والسلام رؤية الكيفية مع كونه معتقداً بأنه تعالى قادر على إحياء الموتى وليس عنده أقل ذرة من الشك في ذلك. قال القرطبي:

الاستفهام بـ (كيف) إنما هو سؤال عن حال شيء متقرر الوجود عند السائل والمسئول، ونظير هذا أن تقول: كيف يحكم زيد في الناس؟ فأنت تعلم أنه يحكم بينهم لا تشك في ذلك، ولكنك تطلب الوقوف على كيفية حكمه، وقوله: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي: ليسكن ويزول عنه التفكر في كيفية الإحياء ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ قرئ بضم الصاد وكسرها مع سكون الراء المهملة وتشديدها، والمعنى على كل فاضممهن وأملهن إليك أو فقطعهن وشققهن، وقيل: إن قرئ بضم الصاد فمعناه أضممهن وأملهن، وإن قرئ بكسرها فمعناه قطعهن وشققهن. قال الجوهري: فمن قال هذا يعني من فسر صرهن بقطعهن وشققهن، جعل في الآية تقديمًا وتأخيرًا، كأنه قال: فخذ إليك أربعة من الطير فصرهن، وعلى تفسير ﴿صُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ باضممهن وأملهن إليك، ورد قول الشاعر:

إنـي رأيت غـلامًـا	أورث قلبي خـبالاً
قـد صـار قـردًا وكلبًـا	وصـار بـعـد غـزالاً
ولـي بـذاك دلـيـل	في قـول ربي تعـالى

فمعنى صار قردًا أي ضم إليه قردًا إلخ.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ﴾ ظاهره عموم جبال الدنيا، وإليه ذهب مجاهد والضحاك، لكن قالا: المراد العموم بحسب الإمكان العادي أي ﴿عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ﴾ يمكنك أن تجعل عليه جزءًا منها. وقال ابن عباس والحسن وقتادة رضي الله عنهم: المراد منه جبال على عدد الطيور الأربعة والله أعلم.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي: واذكر يا محمد وقت

قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ ... إلخ لتقف أمتك على هذه القصة العجيبة وما في طيها من الآيات والعبر، فيزدادوا معرفة بربهم، ويقينًا بعظيم قدرته وباهر سلطانه ﴿رَبِّ﴾ أي: يا رب، وإنما قدم عليه الصلاة والسلام هذا النداء استعطافًا لحضرة مولاه عز وجل، واستجلابًا لمزيد بره وإحسانه ﴿أَرِنِي﴾ أي: أطلعني وبصرني ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ أي: كيف تعيد إليهم الحياة بعد موتهم وتفرق أجزائهم، وذلك بأن تحيي لي بعضهم وأنا أشاهد ذلك وأنظره عيانًا.

قيل: سبب هذا السؤال الذي سأله الخليل عليه الصلاة والسلام أنه مر على دابة ميتة قيل: هي جيفة حمار. وقيل: حوت، وقيل: رجل ميت بساحل بحر، فرآها وقد توزعها دواب البر والبحر، فإذا مد البحر جاءت الحيتان فأكلت منها، وإذا جزر جاءت السباع فأكلت منها، وإذا ذهبت السباع جاءت الطيور، فلما رأى إبراهيم ذلك قال: يارب إني قد علمت أنك تجمعها من بطون السباع وحواصل الطير وأجواف الدواب، فأرني كيف تحييها لأعاين ذلك فأزداد يقينًا.

وقيل: إنه عليه السلام لما ناظر النمرود بقوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ قال النمرود: وأنا أحيي وأميت، فقتل رجلاً وأطلق محبوسًا، وزعم أن ذلك إحياء وإماتة، فقال له: ليس هذا بإحياء وإماتة، وإنما ذلك أن تعمد إلى جسد ميت فتحييه كما يفعل الله تعالى، فقال له النمرود: وهل عاينت ذلك؟ فلم يقدر عليه السلام أن يقول نعم، بل انتقل إلى حجة أخرى، وهي قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ ثم سأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ليشاهد ذلك لتقوم حجته على خصمه.

وقيل: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً سأل ملك الموت ربه أن يأذن له فيبشر إبراهيم بذلك فأذن له، فأتى إبراهيم ولم يكن في الدار، فدخل داره، وكان إبراهيم من أغير الناس إذا خرج أغلق داره. فلما جاء وجد في الدار رجلاً فثار إليه ليأخذه، وقال له: من أذن لك أن تدخل داري؟ فقال: أذن لي رب الدار - يعني الله سبحانه وتعالى- فقال إبراهيم: صدقت، وعرف أنه ملك. فقال: من أنت؟ فقال: أنا ملك الموت جئت أبشرك بأن الله قد اتخذك خليلاً، فحمد الله عز وجل، وقال له: ما علامة ذلك؟ قال: أن يجيب الله دعاءك ويحيي الموتى بسؤالك فحينئذ ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وقيل غير ذلك.

والسبب الأول هو الأظهر والأنسب بظاهر الآية الكريمة - والله أعلم بحقيقة الحال- فيكون الخليل صلوات الله وسلامه عليه لما رأى الجيفة على البحر وقد تناولتها السباع والطيور ودواب البحر، تطلعت همته العالية، واشتاقت نفسه الكريمة إلى الوقوف على كيفية إعادة الله تعالى الحياة إلى الموتى بعد أن يصيروا إلى مثل هذه الحالة، وأخذت خواطره تجول في ذلك وهو ينزع إليه، ويشتاق إلى مشاهدته ورؤيته، دون أن يكون عنده أدنى شك أو وهم في وقوعه، فهو إنما طلب المشاهدة والعيان، شأن الأكابر ذوي الهمم العالية والنفوس الكبيرة، ورضي الله تعالى عن سلطان العاشقين ابن الفارض حيث يقول:

وإن اكتفى غيري بطيف خياله فأنا الـذي بوصاله لا أكتفي

فالكامل لا يقف عند ما كشف له بل يتطلب المزيد، ومن ثم لم يقف الكليم سيدنا موسى عليه السلام عند مقام المكالمة وناهيك به من مقام، بل طلب المزيد واشتاق

لما هو أعلى فقال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ (الأعراف: ١٤٣) لكن لما سبق في علمه تعالى أن رؤية ذاته العلية في الحياة الدنيا لا تقع لغير سيد الخلق على الإطلاق سيدنا ومولانا محمد ﷺ، كانت الإجابة من الله تعالى لكليمه عليه السلام بقوله: ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ بخلاف مطلب الخليل عليه السلام، فلم يكن كذلك، ولهذا كان جوابه الإجابة، والله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

والخلاصة أن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يكن شاكًا في إحياء الله تعالى الموتى، ولا مستبعدًا له ولا متوقفًا فيه، وما كان في إيمانه أقل ضعف ولا في يقينه أدنى وهم، بل كان من سادات العارفين ومتحققًا بعين اليقين وحق اليقين، وإنما طلب الوقوف على كيفية تعلق القدرة الإلهية بالإحياء المذكور، وهو السر المصون والكنز المضنون المعبر عنه بسر القدرة الذي أخفاه الله تعالى عن الكثير من عباده. وقد سئل عنه الإمام علي كرم الله وجهه فقال: بحر عميق لا تلجه وسر الله خفي عليك فلا تفشه. هذا ما اتضح لنا في هذا المقام، ولعله هو المراد بما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: رب أرني كيف تحيي الموتى قال: أو لم تؤمن قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي، ويرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي». فقوله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم». معناه أن هذا الذي تظنونه شكًا منه عليه السلام نحن أولى بطلبه والتحقق به؛ لأنه ليس بشك حقيقي، وإنما هو طلب للزيادة في الكمال، وتشوف للوقوف على أسرار لا يقف عليها إلا الأفذاذ من الخاصة. وقال ذلك النبي ﷺ على سبيل التواضع وإلا فهو متحقق بهذا

المقام وواقف على هذا السر بلا نزاع. وأبقى جماعة كلمة الشك في الحديث على حقيقتها، وتأولوه بجملة تأويلات، منها: أن الشك في إحياء الموتى لو كان متطرقًا إلى الأنبياء لكنت أنا أحق به من إبراهيم عليه السلام، وقد علمتم أني لم أشك، فاعلموا أن إبراهيم لم يشك أيضًا، ومنها غير ذلك والله أعلم.

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى حين سأله الخليل عليه السلام سؤاله المذكور ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ أي: أو لم تصدق وتعتقد بأني قادر على إحياء الموتى حتى تسألني هذا السؤال؟ والله جل شأنه عليم بأن خليله ثابت الإيمان، قوي اليقين بما ذكر، وإنما قال له ذلك ليجيب بجوابه الآتي فيظهر حاله للناس. وقيل معنى ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ أو لم يكفك إيمانك الحاصل عندك؟ ﴿ قَالَ بَلَىٰ ﴾ أي آمنت وصدقت بذلك تصديقًا كاملاً، واعتقدته اعتقادًا جازمًا مبرأ من الشكوك والأوهام، ومنزهًا عن الهواجس والوساوس ﴿ وَلَـٰكِن ﴾ طلبت الوقوف على كيفية الإحياء ﴿ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ أي ليزول عنه التفكر في تلك الكيفية، ويسكن عن الجولان في صورتها والتطلع إلى رؤيتها، فإني ما أزال في تشوف وقلق إلى ذلك. وهذا بناء على ما اخترناه من أن سؤاله عليه الصلاة والسلام إنما كان طلبًا للمشاهدة والعيان، وابتغاء للترقي في مقامات العرفان، وهو الأنسب بظاهر الآية كما أسلفنا. وعلى أن سؤاله كان طلبًا لقيام حجته على النمرود أو لمعزته واصطفائه لمقام الخلة يكون المعنى ﴿ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ بقوة حجتي على خصمي، وإذا قال لي عاينت؟ أقول: نعم. أو ليطمئن قلبي بأني خليل لك، وأنك اصطفيتني لهذا المقام العظيم. فإن قيل: قد وقع للشعراني وابن العربي رضي الله عنهما أن الله تعالى قد يطلع بعض أوليائه على كيفية تعلق القدرة الإلهية بالمقدور حال الإيجاد،

وهذا بعينه هو الذي سأله الخليل عليه السلام بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ على ما أسلفنا فكيف ذلك مع ما هو معلوم للخاص والعام من أن نهاية الأولياء قبل بداية الأنبياء؟ فآخر قدم ينتهي إليه الولي قبل أول قدم يبتدئ منه النبي، فلا يصح بحال أن يصل ولي مهما ارتقت درجته إلى مقام لم يصل إليه مثل الخليل عليه السلام حتى يسأل ربه إياه. قلنا: يمكننا الإجابة عن ذلك على فرض صحة ثبوته عن هذين العارفين الجليلين بأن الذي يصل إليه الأولياء في هذا الباب إنما هو اطلاع قلبي روحاني بعين البصيرة فقط، والذي سأله الخليل عليه الصلاة والسلام هو الاطلاع الحقيقي الحسي والرؤية العينية البصرية، وهذا أتم وأكمل بلا ريب، ففرق بين المقامين. قال الله عز وجل: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ أي إذا أردت أن تشاهد كيف أحيي الموتى وترى ذلك بعيني رأسك ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ قيل: هي طاووس وديك وغراب وحمامة وقيل غير ذلك، ووجه تخصيص الطير على ما ذكروا أنه أقرب إلى الإنسان وأجمع لخواص الحيوان ولسهولة تأتي ما يفعل به من التقطيع والتجزئة ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: اجمعهن واضممهن إليك حتى يمكنك التأمل فيها ومعرفة أشكالها وهيئتها، فلا يلتبس عليك شيء منها بعد الإحياء، وقيل - كما سبق - معناه فقطعهن وشققهن، روى ذلك عن ابن عباس وقتادة وعكرمة وغيرهم كما في الدر المنثور للحافظ السيوطي ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي فخذ أربعة من الطير فقطعهن وجزئهن ثم اجعل على كل جبل من الجبال التي بحضرتك جزءاً منها، وهي أربعة جبال، وقيل: سبعة. روى أنه عليه الصلاة والسلام أمر بذبحها ونتف ريشها وتقطيعها جزءاً جزءاً، وخلط دمائها ولحومها وإمساك رءوسها عنده، ثم أمر بأن يجعل أجزاءها على الجبال

المذكورة بأن يجعل على كل جبل منها ربعًا من كل طائر، ثم يصيح بها: تعالين بإذن الله تعالى. فلما فعل ذلك ونادى بهذا النداء جعل كل جزء يطير إلى الآخر حتى تكاملت الجثث، ثم أقبلت كل جثة إلى رأسها، وانضم كل رأس إلى جثته، وصار الكل أحياء بإذن الله تعالى.

وزعم بعضهم أن الخليل عليه الصلاة والسلام لم يؤمر بتقطيع الطيور الأربعة وأنه لم يقطعها أصلاً، وليس في الآية الشريفة ما يدل على ذلك، وإنما الذي أمر به وفعله هو جمع هذه الطيور لديه وتمرينها على إجابته حتى تتعود ذلك وتصير بحيث إذا أمرها أطاعته وإذا دعاها أجابته، وهذا زعم باطل وتهجم غريب، فإن ما تقرر في معنى الآية وبيان المراد منها هو ما أجمع عليه المفسرون قديمًا وحديثًا، وبه قال ترجمان القرآن وغيره، فلاعبرة بمن خالف بعد ذلك، ولا اعتداد بقوله ورأيه. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ ﴾ بعد أن تفعل بهذه الطيور ما ذكر ﴿ ادْعُهُنَّ ﴾ أي نادهن، وقل لهن: تعالين بإذن الله تعالى ﴿ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ أي: ساعيات مسرعات في الطيران إليك، وقيل: ماشيات على أرجلهن. وعن الحسن رضي الله عنه أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم عليه السلام أنك سألتني كيف أحيي الموتى وأني خلقت الأرض وجعلت فيها أربعة أرواح: الشمال والصبا والجنوب والدبور حتى إذا كان يوم القيامة نفخ نافخ في الصور فيجتمع من في الأرض من القتلى والموتى كما اجتمعت أربعة أطيار من أربعة جبال، ثم قرأ ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (لقمان: ٢٨)، ﴿ وَاعْلَمْ ﴾ علم مشاهدة وعيان ﴿ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب على أمره لا يعجزه شيء ولا يستعصي على قدرته شيء ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يضع كل شيء في موضعه، لا يقع منه العبث ولا تخلو أفعاله عن المصالح والحكم

سواء كان إيجادها على وفق العادة أو بطريق خرق العادة، سبحانه لا يبلغ الواصفون صفته، ولا يعرف قدره سواه.

الاستنباط

ويستنبط من مجموع ما سبق الفوائد الآتية:

١- أنه ينبغي للإنسان استعمال الأدب والاستعطاف عند الطلب، وأن يقدم ما يستدعي الإجابة قبل دعائه كما قال الخليل صلوات الله وسلامه عليه ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾.

٢- أن الدعاء مفيد في قضاء الحاجات واستمطار الخيرات والبركات متى توافرت شروطه وآدابه.

٣- عظم فضل الخليل عليه الصلاة والسلام عند ربه حيث أجابه لمطلوبه في الحال على أيسر وجه بخلاف العزير عليه السلام، فإنه إنما أجيب بعد أن أماته الله مائة عام ثم بعثه.

٤- أن همة الكامل لا تقف عند ما وصلت إليه، بل تتطلب دائما ما هو أعلى وأكمل.

٥- طلب العبد من ربه زيادة المعارف ونيل الدرجات العلى لا ينافي إخلاصه في عبادته، وأنه يعبده لذاته لا لعلة دنيوية أو أخروية، وإلا لما وقع ذلك من الخليل عليه السلام.

٦- جواز الاطلاع على كيفية إحياء الله تعالى الموتى، وإلا كان طلبه عبثًا لا يليق بالنبي المعصوم. ومما يؤيد ذلك جواز رؤية الله تعالى في الجنة لعباده بلا كيف ولا انحصار.

٧- إن مراتب العلوم متفاضلة ودرجات اليقين متفاوتة، ولذلك قال أبو بكر الوراق رضي الله عنه: اليقين على ثلاثة أوجه: يقين خبر، ويقين دلالة، ويقين مشاهدة. وعن بعضهم أن ابتداء اليقين المكاشفة، ثم المعاينة والمشاهدة. فالمكاشفة أدنى من المعاينة؛ لأن المكاشفة هي الكشف القلبي والاطلاع الروحي بخلاف المعاينة، فإنها الرؤية بالبصر. والله أعلم.

٨- أن قدرة الله تعالى غير متقيدة بالأسباب العادية والنواميس الطبيعية، بل الله تعالى يخلق ما يشاء، ويختار بسبب وبدون سبب، وهذا مظهر من مظاهر عزته الإلهية جل شأنه.

٩- إن البنية ليست شرطًا عقليًا في صحة الحياة وذلك لأنه تعالى جعل كل واحد من أجزاء تلك الطيور الأربعة حيًا، فاهمًا للنداء قادرًا على السعي بدون وجود البنية الكاملة. ومن هذا القبيل أو أعجب ما وقع من حوت سيدنا موسى وفتاه عليهما الصلاة والسلام، فقد جعل الله تعالى ما بقي من أجزائه بعد أن سوياه وأكلا منه بالفعل حيًا قادرًا على السعي والجري في الماء ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ (الكهف: ٦٣).

١٠- أن كمال القرب من الله تعالى وتمكن محبته عز وجل من قلب عبده المخلص يجعله ربانيًا، ويكسوه حلة صمدانية بحيث إذا سأل الله تعالى أعطاه، وإذا دعاه أجابه، وإذا توجهت همته إلى شيء قضي بإذن الله تعالى، كما أشار لذلك الحديث القدسي بقوله: «ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به».. الحديث. والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ صدق الله العظيم

من سورة [البقرة: ٢٦١، ٢٦٣]

بعد أن أقام الحق سبحانه وتعالى في الآيات السابقة ما فيه الكفاية من الحجج الساطعة، والبراهين القاطعة على تقرير ألوهيته، وإثبات ربوبيته، وأنه جل شأنه صاحب الملك والتصريف، وله وحده الخلق والأمر، يحيي ويميت، ويهدي ويضل، ويدبر شئون العالم، ويبعث الموتى من البلى بغير ممانع ولا منازع وبدون معين ولا شريك، أراد جلت قدرته، وعزت حكمته، أن يرغب عباده المؤمنين، ويحثهم على إنفاق أموالهم في طرق الخير عامة، وفي سبيل دينه وإعلاء كلمته خاصة، لما في ذلك من صيانة الدولة، ورعاية الملة، وسد حاجات المعوزين والمضطرين. فقال تبارك وتقدس: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ﴾ أي صفة نفقات ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ ﴾ يصرفون

ويبذلون ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ التي ملكها الله تعالى لهم، وخولهم إياها قليلاً كان ذلك الإنفاق أو كثيراً ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي في طاعة الله في كل ما رضيه وأمر به من أنواع البر وطرق الخيرات، فيشمل الإنفاق في الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى، وفي الحج، وطلب العلم الديني، والإنفاق على الفقراء والمحتاجين، وعلى النفس والأهل والعيال، كما يشمل الإنفاق على المصالح العامة، والمشاريع الخيرية، كبناء المساجد والمدارس والمستشفيات والقناطر، وإصلاح الطرق، وغير ذلك مما فيه منفعة العباد والبلاد، وإن كان الثواب في ذلك متفاوتًا، وكلما مست الحاجة إلى الإنفاق، وعظمت المصلحة المترتبة عليه كان الثواب أعظم والأجر أجزل ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ﴾ أي أخرجت. وإسناد الإنبات إليها مجاز كإسناده إلى المطر والأرض، والمنبت حقيقة هو الله تعالى ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ أي أنبتت ساقًا تشعب إلى سبع شعب في كل شعبة منها سنبلة ﴿فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ فيكون المجموع سبعمائة حبة. قالوا: (والممثل) به موجود في الدخن والذرة، وربما فرجت ساق الذرة في الأرض القوية المغلة فيبلغ حبها هذا المبلغ، على أن التمثيل يصح وإن لم يوجد على سبيل الفرض والتقدير ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ﴾ هذه المضاعفة وأزيد منها ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده، كل على حسب إخلاصه، وصدق نيته، ومقدار الجهد الذي تحمله في ذلك. إذ ليس من أنفق المال مع احتياجه له، وقلة ذات يده، كالمنفق عن سعة وغنى، ولا من أنفق لتكون كلمة الله هي العليا فحسب، كمن أنفق لذلك مع غرض آخر من الأغراض الدنيوية العاجلة. ومن هنا يقول ﷺ: «الله الله في أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه». وعن عمران بن حصين رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «من أرسل بنفقة في سبيل الله وأقام في بيته فله بكل درهم

سبعمائة درهم، ومن غزا بنفسه في سبيل الله، وأنفق في وجهه ذلك فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة ألف درهم». ثم تلا هذه الآية ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴾

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «طوبى لمن أكثر في الجهاد في سبيل الله من ذكر الله، فإن له بكل كلمة سبعين ألف حسنة، كل حسنة منها عشرة أضعاف مع الذي له- أي مضمون هذا التضعيف المذكور مع الذي له - عند الله من المزيد، قيل: يا رسول الله، النفقة؟ قال: النفقة على قدر ذلك، قال عبد الرحمن: فقلت لمعاذ: إنما النفقة بسبعمائة ضعف، فقال معاذ: قل إنما ذاك إذا أنفقوها وهم مقيمون في أهلهم غير غزاة، فإذا غزوا وأنفقوا خبأ الله لهم من خزائن رحمته ما ينقطع عنه علم العباد وصفتهم، أي ما لا يعلمه العباد، ولا يمكنهم أن يصفوه، فأولئك حزب الله وحزب الله هم الغالبون ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴾ واسع الفضل والكرم يعطي الثواب الجزيل على العمل الصالح ولو قل؛ لأن خزائنه لا تفنى، ومعين جوده لا ينضب ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأحوال عباده وبما انطوت عليه صدورهم من الإخلاص والصدق، فيعامل كلاً بما يستحق، ومن لم يجد ما ينفقه في سبيل الله تعالى، ففي نوافل الخير من العبادات البدنية ما يعوضه ذلك أو يزيد عنه. وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الصلاة والصيام والذكر تضاعف على النفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا:

بلى. قال: ذكر الله تعالى». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: «ذهب أهل الدثور (المال الكثير) بالدرجات العلى والنعيم المقيم، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموال يحجون ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون، فقال: ألا أعلمكم شيئًا تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟ قالوا: بلى يارسول الله. قال: تسبحون وتحمدون وتكبرون الله كل صلاة ثلاثًا وثلاثين» رواه الشيخان، وزاد مسلم في روايته فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: «سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله»، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»، ثم بين سبحانه وتعالى أن الحصول على هذا الثواب المتقدم إنما هو بالنسبة لمن أخرج نفقته خالصة لله تعالى ابتغاء مرضاته، ولم يتبعها بالمن والأذى، فقال: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ في طاعته ومرضاته ﴿ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا ﴾ المن يطلق ويراد منه الإنعام والإحسان، ويطلق ويراد منه تعداد النعم على المنعم عليه، وتعييره بذلك كأن تقول له: أحسنت إليك بكذا وفعلت معك كذا وكذا، وهذا هو المراد في هذه الآية الكريمة، وهو مذموم شرعًا وعُرفًا بخلاف الأول، فإنه مطلوب وممدوح وقد اجتمع المعنى في قول القائل:

يمن على راجيه من غير منة فإن قلت منان فقل غير منان

﴿ وَلَا أَذًى ﴾ كالتطاول على المنعم عليه بسبه أو ضربه، وقيل: المن أن يذكر النعمة، والأذى أن يحقره. وقيل: المن أن يستخدمه بالعطاء، والأذى أن يعيره بالفقر. ومنشأ المن - على ما في الإحياء - أن يرى

الإنسان نفسه محسنًا إلى الفقير ومنعمًا عليه، ولذلك يطالبه بالثناء والشكر، وينتظر منه الخدمة والتعظيم، وهذا خطأ وجهل، بل المطلوب منه أن يرى الفقير هو المحسن إليه بقبول صدقته؛ وإذا كان لابد من أن يرى نفسه محسنًا فليلحظ أنه لم يحسن إلا إلى نفسه؛ لأنه طهرها من رذيلة البخل، وجمَّلها بفضيلة السخاء وزكاها عند الله تعالى، وفي القرآن الكريم ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ (الإسراء: ٧)، وأما الأذى فمنشؤه محبة المال وكراهة إخراجه من اليد، وشدة ذلك على نفسه، وأنه يرى الفقير بسبب اضطراره واحتياجه أخس منه حالاً، وأحط منه منزلة، وهذه كلها نقائص وعيوب نفسانية خطيرة، ينبغي بذل الجهد في معالجتها واستئصال شأفتها، والله المستعان. فالذين ينفقون أموالهم بدون من ولا أذى هم الذين ﴿ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ وثواب إنفاقهم الذي وعدوا به في الآية السابقة، وهو مضاعفة نفقاتهم إلى سبعمائة ضعف أو يزيد ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي أن هذا الأجر ثابت ومدخر لهم عند ربهم الذي لم يعودهم إلا كل إحسان وكرم، فهذه زيادة في تقرير الثواب وتأكيده، كما تقول لصاحبك: حقك عندي، تريد أنه متقرر ثابت بمنجاة من الضياع، وبمأمن من الجحود والنكران، والإضافة في ﴿ رَبِّهِمْ ﴾ لمزيد الاختصاص، فهي عنوان على التشريف والتكريم ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: في الآخرة من نقصان في أجورهم، أو مكروه يصيبهم وأذى يلحقهم ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ لفوات محبوب لهم؛ لأنهم يدخلون الجنة لا يظمأون فيها ولا يضحون، ولا يجوعون ولا يعرون، لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون، لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً. وقد فرق العلماء بين

الخوف والحزن بأن الخوف هو اغتمام القلب لتوقع مكروه يحصل في المستقبل والحزن اغتمامه من مكروه مضى أو محبوب فات، والمنفي عن هؤلاء المنفقين في سبيل الله تعالى إنما هو الخوف والحزن في الآخرة، كما قيدنا بذلك. وأما في الحياة الدنيا فقد تلحقهم الهموم والأحزان، وقد يخافون من نحو ظالم أو سبع ضار أو غير ذلك، وقد ورد في الحديث الصحيح: «أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل» يعني في الحياة الدنيا، وذلك لأن البلاء فيه تكفير للسيئات، وتكثير للحسنات ورفع للدرجات. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه». وفي التنوير للعارف ابن عطاء الله : اعلم أن في البلايا والفاقات من أسرار الألطاف ما لا يفهمه إلا أولو البصائر، ولو لم يكن إلا تذلل النفس وتحقيرها وقطعها عن حظوظها، لكان في ذلك غاية المطلوب منها. وقد قيل: حيثما رفعت الذلة وقعت النصرة. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ (آل عمران:١٢٣)، ومما يدل على أن المنفي عنهم إنما هو الخوف والحزن في الآخرة ما روي في أسباب النزول من أن هذه الآية الكريمة نزلت في سيدنا عثمان ابن عفان وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهما ، ولا يخفى ما أصاب عثمان رضي الله عنه من الأذى البالغ والبلاء الشديد. روي أنه رضي الله عنه في غزوة تبوك جهز ألف بعير وسبعين فرسًا، وجاء بألف دينار ونثرها في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصار صلى الله عليه وسلم يقلبها في حجره ويقول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم». وفي رواية أن الذي جاء به من الدنانير كان عشرة آلاف. وكان عند عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه ثمانية آلاف درهم فقسمها نصفين أبقى لأهله نصفها، وأتى النبي صلى الله عليه وسلم